٤- في رحم الأرض والأحبة

رحمتنا الأرض. في الليل كانت تحضننا مغاورها وخرائبها وبيوت اهاليها. كنا نمشي على الدروب المنسية في الخلاء عبر الوديان والتلال والجبال والسهول. كنا في اوائل كانون ثاني المزمجر العاصف، نواجهه بجسدينا شبه العاريين، لكننا لم نكن الوحيدين الذين عانقتنا الأرض وشملتنا بحبها ودفئها، بل كان كثير من المطاردين العاشقين. وما جمعنا معاً كان حبنا للأرض والأهل والغد المشرق الآتي حتماً مع انبلاج الظلام.

لم اتوقع يوماً أن عشق الوطن والحرية سيجمعني والزميل الرائع والانسان كبير القلب، طلعت. نعم، اذكر كيف التقينا ليلتئذ. وما يجعلني أدوّن ما جرى فيها ان تلك الليلة كانت "حُبلى" بأحداث ومفاجآت كأنها دهر من الزمان. بل انها امتازت بكل ابعاد حياة العشاق المطاردين، وما يحيق بها من خطر وبرد ومطر وريح، ومن محبة الأرض وعطفها علينا، ومن رعاية أهلنا لنا ومساعدتهم لنا.

ولا غرو ان تكون الليلة المدلهمة الطويلة رمزاً موفقاً لأيام طويلة ذقنا فيها مرارة التشرد ودفء الأرض ومحبة الأهل. نعم، اذكرها جيدا بكل تفاصيلها. حدثت معنا قبل ست ايام.

كنتُ وخالد متعبين اشد التعب، وجائعين. مربنا لتونا من حاجز تفتيش على احدى الطرق الرئيسية، والتجأنا الى منطقة نائية تحيط ببعض القرى الفلسطينية. كان علينا ان نأوي لمكان نختبىء ونبيت

فيه، في الجو الكانوني العنيف الماطر البارد. كاد الثلج يفرش سجادته البيضاء على الأرض. وكدنا نموت تجمداً.

فجأة، ونحن نتعثر من التعب، شقّ ضوءُ القمر الباهت جرحاً صغيراً في الغيوم الثقيلة البطيئة الحركة، ولاحت في اعلى الجبل مغارة. اتجهنا اليها. كنا متعبين حقاً من المشي حيناً والركض حيناً آخر. وكنا مبلولين حتى العظام، وأصابتني وخالد نوبة من القشعريرة غير الإرادية.

ولجنا الى المغارة، ونحن غير مصدقين أننا وجدناها حقاً، كأن الطبيعة خلقتْها لنا لنلتجىء إليها وتحمينا.

ولدهشتنا وجدنا فيها بطانيات وحطباً وآثاراً بشرية. ولا بدّ أن اعترف ان الخوف اعترى قلبينا. خفنا أننا وقعنا في شرك، وفكرنا باحتمال ان عشاقاً آخرين كانوا في المغارة قبلنا. ورغم التردد والقلق، وجدنا انفسنا نرتمي على البطانيات ونلتفّ بها، ونحن على بعد مترين من مدخل المغارة، وعيوننا تتحرك هنا وهناك نراقب محيط الكهف للحذر والحيطة.

ضممتُ فخذيّ إلى جسدي فشعرتُ بشيء يوخزني بحافته كأنّهُ سكين، فتذكرتُ الدفتر، وأخرجته بعد أن جففتُ يديّ وأزلتُ كيس النايلون الذي وضعته فيه، وتفقدتُه. لم تصله الرطوبة او الماء، فوضعته في الكيس مرة اخرى، ووضعته قربي على حافة البطانية الجافة في صدر المغارة.

لكننا لم نذق طعم الراحة، بل شعرنا بالبرد وعدم الأمان. ولم يكن حدسنا خاطئاً. فقد فوجئنا بشبحين في بطن الوادي، يتجهان صوب الكهف. وكان الشبحان احياناً يختفيان خلف صخرة او بين الأشجار واحياناً يظهران. اصابنا الوجل، وأدركنا كم كان من المفيد أننا لم نحاول ان نشعل ناراً. وبدا احد الشبحين طويلاً ووئيد الخطوات، بينما كان الشبح الآخر قصير الجسم، ممتلىء البنية.

-« من الأفضل ان نهرب، لن يستطيعا اللحاق بنا، يبدو أنهما متعبين من المشي. » قال خالد، لكننا لم نكن متيقنين أنهما يتجهان نحونا. كانت الأمطار تواصل لحنها الخريري الأبدي. واحياناً حملتْ الرياح همسهسة اقدام الشجين على الارض الوعرة وألقتْها عند عتبة المغارة. وتصاعد خوفنا. وكان علينا ان نتخذ قراراً حاسماً بالمواجهة او الهروب.

اقترب خالد مني وقال: « لعلّهما قادمين من اجل اشخاص آخرين او ربما لغرض آخر لا علاقة لنا به. »

-« أتقصد انهما اصحاب البطانيات والحطب؟ » سألتُ خالد، « ربما هما مطاردان مثلنا؟ »

-« وربما كانا عميلين او عناصر أمن اسرائيليين.. » قال خالد ولم يكمل. لم اعد اشعر بالبرد، بل كان العرق يتفصّد من جبيني. لم تكن بداية المواجهات في حياتي كعاشق مطارد، لكنها كانت تجربة غريبة وصعبة لم أمر بمثلها.

-« خالد.. ماذا تقترح ان نعمل؟ » سألتُه وقد نفذ صبري.

صمت خالد للحظات، ثم قال بثقة: « سنختبىء، تعال! » وسرنا في طريق متعرّج حتى وصلنا الى صخرة كبيرة، ثم تشعلقنا على رجم من الحجارة، وإذ بي اجد نفسي عند شجرة صنوبر عالية.

-« لنبقَ هنا! سنراقبهم من هنا.. هذا المكان سيعطينا افضلية للهروب أيضاً في حالة الضرورة.. » قال خالد وكان صوته هادئاً رزيناً، الأمر الذي جعلني أطمئن واشعر بالثقة.

ومضى وقت غير قصير ونحن متربصين بين سيقان الاشجار، في قلب الرياح الهوجاء، وتحت زخات المطر المتواصلة، حتى وصل الشبحان الى عتبة المغارة وراقبا ما حولهما ثم ولجا اليها. وحينذاك، آه، تذكرتُ أنني نسيتُ دفتري في الكهف.

-« نسيتُ الدفتر.. » قلتُ لخالد وقلبي ينتفض انتفاضات خوف متواصلة.

-« مجنون؟ » عنّفني خالد متذمراً. شعرتُ لأول مرة اني خذلته وشعرتُ بالأسى. « أنت حمار؟ هذا حذرك وانضباطك؟ تعال، يللا، امشِ!! » قال وجرني من ذراعي، وصعدنا خلف سلسلة من الحجارة الجيرية الكبيرة، تقع خلف اشجار الصنوبر. وتربصنا مختبئين هناك.

-« إذا ما نويا شراً فليس لنا سوى الهروب! » قال لي هامساً بحنق وغضب. راقبنا في ضوء القمر الباهت، وعبر سيقان الاشجار، ما يجري، او ما يمكن ان يجري عند عتبة المغارة. خرج الشبح القصير بعد برهة، وراح يتفقد المكان في خضم الرياح والمطر، واتجه من مكان لآخر حتى اقترب منا. ووجدنا انفسنا نخرج مديتينا للحيطة. وكنا على اهبة الاستعداد للهروب إن حصل شيء ما. واقترب الشبح اكثر فأكثر حتى استطعنا ان نسمع صوته الأنثوي،

-« لا تخافوا، لكم الأمان والسلامة، أنتم آمنون فلا تخافوا! » همس

الصوت الأنثوي في وجه الرياح ينادينا. ارتبكنا، ولم نعدْ ندري ما نفعل. ورغم ذلك شعرنا بالأمان. بدا أن الشبح وهو لا بدْ امرأة، غير واثق من مكان اختباءنا، رغم انه بدا واثقاً من وجودنا، لأنه كان يتحرك هنا وهناك، يبثّ نداءه الانثوي.

-« ما رأيك؟ » سألني خالد. « يبدو أنهما من قرية قريبة ولا اعتقد انهما سيؤذياننا. »

-« ولا أنا أيضاً! »

صمتنا لبرهة، حتى رأينا الشبح قصير الجسم صاحب الصوت الأنثوي يدخل المغارة.

-« لنرجع الى الكهف. » قال خالد. « نرى على الأقل ما يريدان. لا شكّ أنهما متيقنان أننا موجودان في ناحية معينة. »

وافقتُه الرأي. لم يكن من مفرّ. اتجهنا بحذر نحو المغارة، واقتربنا من مدخلها، وساد صمت رهيب في الداخل.

-« دستور! » قال خالد بصوت أجشّ مضطرب. « نحنُ ابناء حلال نطلب الأمان، أمان الله علينا وعليكم.. ومن يخُنْ، يخنِ الله! » قال خالد متهدجاً.

لا اعرف إن كان للكوفية التي كان خالد يتلثّمُ بها او للبرد او للقشعريرة أية علاقة بتهدج صوته، لكني أعرف أننا شعرنا بشيء عظيم. كنا نعيش لحظات على هامش الحياة العادية، لحظات لا يشعر بها المرء الذي يحيا كانسان ذو هموم بسيطة، لأنها لحظات تعقدُ مواثيق غليظة وروابط انسانية عظيمة، تربط الموت بالحياة، والجهل بالمعرفة، الشك بالثقة، والخوف بالانتماء.

-« إنّما ننوي أن نبيت هنا ليلة او ليلتين، ولن نسبب الأذى لأحد، وليكن الموت نصيبنا إذا ما ضمرنا لكم الغدر او الخيانة، هذا عهد. »

-« عليكما الأمان، ادخلا، أنتما أهل البيت ونحن خدامه، ادخلا. » قال رجل عجوز.

فدخلنا باطمئنان دون رهبة او تردد، ودسسنا المديتين في جيوبنا. كان ثمة مصباح قد اضيء، وظهر عجوز يجاوز السبعين من عمره، وقف في صدر المغارة، وعباءة سوداء تغطي جسده، وعلى رأسه كوفية بيضاء وعقال اسود. وكانت اصابعه تسبّح بمسبحة بحركة دائبة، تبثّ في عينيه الحادتين الحركة والنشاط.

وكانت الفتاة اقرب إلينا من الشيخ. وربما لقرب الفتاة منا اكثر من الرجل المسن، خامرني شعور بالطمأنينة، وبدا لي ان ذات الشعور

اعترى خالد، وكأن قربها منا كان اشارة الينا تدعونا الى الثقة بهما. واقتربتْ الفتاة منا بضع خطوات، فزال عن قلوبنا عبء كبير مثقل بالشك. وفي ضوء المصباح الذي تحمله، رأيتُ الفتاة بوضوح تام.

كانت في العشرينات من عمرها. وما أذهلني أنها كانت تشبه اشجان في بعض ملامحها، خاصة شفتها القرمزية العليا، وبشرتها الحنطية الرقيقة، وابتسامتها الصافية، وأنفها الشامخ المحدوب قليلا في منتصفه كأنه فرس جامحة تأبى الخضوع.

آه، لماذا لا استطيع أن أراك مرة واحدة يا اشجان ، مرة واحدة تبتسمين كابتسامة الطمأنينة التي بثّتْها هذه الفتاة الفلسطينية الغريبة؟ لا اذكر يا اشجان ان رأيتك تبتسمين لي وحدي، وحدي انا منذ زمن بعيد، لماذا؟. حينما اذكرك لا اتذكر إلا الاحزان. الى متى هكذا!! متى تبتسمين لي وحدي بعذوبة وحلاوة، ومتى نفرح؟!!

-« اسمعاني، كلاكما. » قال العجوز وهو يقترب منا، وجذب ثيابه الى جسمه اكثر ليصيب الدفء. « عليكما ان تسمعاني، لا وقت لدينا نضيعه.. لا يصلح لكما مبيت في هذه المغارة، لذلك اجمعا اغراضكما، والأغراض التي كانت هنا قبل مجيئكما.. سوف تأتيا معنا.. »

شرعنا بالاعتراض لكن العجوز تذمّر من مقاطعتنا. « اصغيا لما اقول، نفذ الجيش حملة اعتقالات في قريتنا، وأخذوا شباناً كثيرين، ولو كان ثمة طريق مسفلت، يؤدي الى الكهوف حول القرية لأتى العسكر وفتشوا المنطقة، استمعا إليّ، هداكما الله.. سيقلبون الجبل حجراً حجراً.. نريد أن نأخذكما الى القرية، هناك ستجدان الأمان.. سنرعاكما رعايتنا لأولادنا ونفوسنا.. يللا، يللا، هيا بنا، هداكما الله.. لنتوكل على الله! » قال لنا، لكننا ترددنا.

-« لقد تعب جدي كثيراً ليأتي إلى هذا المكان، ومن العيب أن تفشلوه.. » قالت الفتاة وابتسمت.

-« قولوا يا الله، علينا العودة قبل تحول الأمطار الى برَد وربما ثلج، لا سمح الله. هيا، علينا ان نصل بسرعة. » قال الشيخ.

تبادلنا النظرات. لم يكن من مفر إلا أن نثق بهما. فرزمنا اغراضنا وما وجدناه في الكهف، لئلا تعثر عليه قوات الاحتلال إذا ما مشطت التلال المجاورة. ورحنا نغوص في بطن الوادي. وصار الليل مدلهماً وشديد الحلوكة، وازداد المطر هطولاً. وبات الليل بهيماً، بهيماً جداً. حملتُ بطانيات وكيساً من آثار الطعام. وقادنا الشيخ العجوز الى اسفل الجبل، وخلفه مباشرة خالد ثم انا والفتاة في الخلف، وفي

لحظة ما، التفتُ الى الفتاة، كانت تلف رأسها بمنديل بني.

-« الدفتر الأحمر، لمن منكما؟! » سألتني وضحكتْ ضحكة رقيقة هازئة.

-« لي.. »

فهزّت رأسها وابتسمت. « في الخلاء والجبال على الانسان ان يستعمل فطرته الطبيعية، وألا يخطىء اخطاءاً جسيمة مثل هذه! »

لا بدّ أنني كنتُ غبياً، لكني شعرتُ بالارتياح لأنها ذكرتْ الدفتر. حمدتُ الله ان الدفتر وقع بأيدي آمنة ستصونه وتصون الاسرار التي بثثتها فيه. وذكرني وجه الفتاة الغريبة باشجان الحبيبة. آه كم تمنيت ان تكون قربي واكون قربها.. «آه كم احبك يا اشجان!».. كيف هي يا ترى، وكيف أمي الحزينة، واخواتي والأزعر الصغير؟! بماذا عساهم يشعرون الآن؟ وأين هم؟ آه، كم اشتقتُ اليهم! آه...

اقتربنا نحو بيوت القرية، نحو الأهالي، نحو الدفء. كانت البيوت متناثرة هنا وهناك في وداعة وحنان.. كانت طرقات البلدة الضيقة وغير المسفلتة مغمورة بالطين والمياه، وتملؤها الحفر. وساقنا العجوز والفتاة الى احد البيوت. بدأت غابات الظلام شديدة الحلوكة تقل وتقل كلما اقتربنا من القرية. وفي احدى البيوت التي ولجنا اليها لم يعد من وجود للظلام والريح والبرد.

ياه، كم كان شعوراً رائعاً وجميلاً ان تلمس محبة الارض ومحبة ابناءها الذين يعيشون عليها، حينما تكون عاشقاً مطارداً، لا بيت ولا مستقر. وكما رحمتنا الارض، غمرنا هؤلاء الأهالي الطيبون بمحبتهم ودفئهم، رغم ان من الممكن جداً ان يتعرّضوا للعقاب الجماعي الوحشي إن امسكونا بين ظهرانيهم. كانوا يغامرون ويحمونا ويساعدوننا. ولن أنسى، كما لن ينسى العشاق الآخرون ما فعله أهل البلدة، وكيف استقبلتنا عائلتهم الكبيرة، وغمرونا بمحبتهم.

كان بيتهم ريفياً بسيطاً، دخلنا إليه عبر أرض وعرة، كانت بمثابة حقل، ثم دخلنا الى "حوش" يحفه سور متهدم الاطراف، واحد جوانبه يفضي الى زريبة مواشي، ثم ارتقينا بضع درجات قليلة أفضتْ بنا الى غرفة واسعة مؤثثة بالبُسُط العربية وفرشات الاسفنج، وكان في صدر الغرفة كانون كبير، وفيه جمرات نار تلظى احمراراً، وتبعث الدفء والحرارة في ارجاء الغرفة.

-« تفضلا، ادخلا، البيت بيتكما. » قال الشيخ العجوز، فدخلنا ووقفنا عند العتبة، وملابسنا تسيل منها مياه المطر. ولم نشأ ان نجلس لئلا

نبلّل الفراش. « البيت بيتكما، أُدخلا، أُدخلا الى صدر الغرفة، ادخلا، لا تهتما لشيء، ادخلا! » قال لنا الشيخ وهو يؤنبنا ويدعونا ان نقترب من الكانون، لكننا لم نفعل. كنا ما نزال ملثمين، وشعرت باضطراب غريب.

وفجأة اندفع الى الغرفة رجل اربعيني السن ضعيف البنية، كان يسعل سعالاً حاداً متواصلاً، ومن المرجح انه يعاني من مرض رئوي.

-« أخذتما وقتاً طويلاً، وأقلقـ... » قال الرجل وصمت حالما رآنا، وشرع يسعل بحدة وغطى وجهه بالمنديل الذي راح يتقيأ فيه بلغماً، ولم يعد قادراً أن ينطق بحرف واحد.

-« وهل أحضرتما الأغراض؟ » سأل رجل آخر كان خارج الغرفة.

-« ادخلا واغلقا الباب! » قال الشيخ العجوز واشار بيده الينا، فدخل الرجل الثاني ورآنا وظهرت عليه الدهشة ايضاً. وحدق الرجلان بنا غير مصدقين. وزحفا بتثاقل الى الغرفة، واغلقا الباب، ولم يتفوها بكلمة.

وكان علينا انا وخالد ان نقبل تحدياً كبيراً، وهو أنْ نخلع كوفياتنا. كان لا بدّ أن نُبدي ثقةً بهم، الأمر الذي لم نخف أن نقدم عليه رغم تردد بسيط أصابنا لبعض الوقت. أمَا وثق الأهالي الطيبون بنا وادخلونا الى بيتهم؟ أخذ الرجل النحيل يسعل بشدة ويلهث بصعوبة.

-« اذهبْ يا كامل، واحضر ملابس للشباب كي يغيرا ملابسهما، وقل لأهل الدار ان يعدّوا شاياً ساخناً لعمك، ويحضروا طعام العشاء للضيفين. » قال العجوز، وأشار للشاب كامل الذي كان وجهه محروقاً تغطيه البثور، ويرتدي معطفاً اسود ثقيلاً. وناولنا الرجل الذي كان يسعل بشكيرين احضرتهما بنت صغيرة، فنشفنا رأسينا. وجلس العجوز قرب الكانون، وحرك الجمرات تحت الرماد بملقاط حديدي طويل، ثم لف سيجارة هيشة بأناه وصبر وهو ينظر إلينا ويقول،

-« اجلسا، اجلسا!»

لكن كامل دخل الى الغرفة، وعلى كتفه ملابس لي ولخالد، وفي يديه صينية شاي ساخن. غيّرنا ملابسنا، وشعرنا بالدفء يسري فينا شيئاً فشيئاً، وجلسنا قرب العجوز والرجلين. وراح الرجل النحيل يحتسي الشاي بتلذذ. وبدا ان نوبة السعال خفتْ كثيراً بفضل الشاي الساخن. ونظر الشيخ الى الرجل النحيل وتنهد، ووضع سيجارة الهيشة، التي لفها لتوه، في علبة الهيشة الفضية وكأنهُ تذكر ان

الدخان يضرّ بالرجل النحيل.

-« الدفتر معك؟» سألني خالد هامساً حين جلسنا حول الكانون، فقلتُ له ان يطمئن لأن الدفتر في مكان آمن، وابتسمت.

-« هو الدفتر الذي هدانا إليهما! » قال العجوز. « ولولا وجدته "المقرومة" لوقعا في قبضة العسكر! »

-« نود أن نعرف من أنت يا سيدي الحاج! » قال لخالد مخاطباً العجوز الذي بدا مسروراً. وهزّ الشيخ رأسه ومصّ شفتيه.

-« أنتما في بيت الشيخ خضر، وهذا ابني محمد، ابو خضر والشاب هذا اسمه كامل وهو ابن ابني سلمان والمقرومة التي كانت معي في الجبل عطاف.. لا، لا داعي لتذكرا اسميكما.. انتما اولاد حلال.. وهذا يكفي! » قال الشيخ خضر، واطلق آهة استحسان، فقد دخل كامل ومعه "طبلية"، عليها خبز وطابون شهيّ الرائحة وصحن كبير من الأرز ولحم دجاج ويخنة فاصولياء بيضاء مع مرقة البندورة...

ياه! كم كان الطعام لذيذاً! وكم كان يوماً حافلاً! ولن أنسى تاريخ الخامس عشر من كانون ثاني أبداً، ففيه التقيتُ بطلعت.

-« وأين الجماعة الآن؟ » سأل الشيخ خضر الشاب ذا الوجه المحروق.

-« إنهما الآن في دار عمي محمد! » قال كامل وحرّك جمرات النار بالملقط، فانبثقتْ غيمة من الدفء من تحت الرماد. توهّجتْ الجمرات الصغيرة مثل النجوم، رغم ان من ينظر الى الكانون قد يعتقد ان النار تحت الرماد ميتة.

وادركنا أن "الجماعة" التي تحدّث عنها أهل البيت تتكوّن من شابين مطاردين. نظرتُ الى خالد، فرأيته يتغامز وكامل، ثم تنهّد خالد بارتياح وابتسم، وحك شعره البني الاجعد بأصابعه الطويلة، وربتَ على ركبتي يطمئنني. ولم نقل شيئاً.

وبعد العشاء روى الشيخ خضر لنا الظروف التي حدتْ به ان يأتي الى الكهف في الليل الماطر والعاصف، وروى للرجلين كيف التقانا هو وحفيدته.

لجأ شابان مطاردان الى القرية في الصباح. ورأى المزارعون والعمال، الذين عادوا الى بيوتهم بسبب الطقس العاصف، الشابين المطاردين وآووهما. ورصد اهالي القرية قوة عسكرية متجهة صوب البلدة، مما جعل بعض شبان القرية يساعدون المطلوبين ويرشدوهما الى الكهوف المحيطة بالبلدة وزودوهما ببطانيات واغراض اخرى لتقيهما المطر والبرد.

وعاد الشبان الى البلدة، ووجدوا ان قوات الاحتلال اغارت على البلدة بحجة ان مطلوبين للسلطات لجأوا اليها، فجمع الجنود رجال القرية، شيوخاً وشباباً واولاداً في ارض الشيخ خضر في برد كانون الثاني ورياحه الزمهريرية. وعزز ظهور الشبان، الذين ساعدوا المطاردين، شك الضابط الاسرائيلي بان المطاردين مرّوا بالقرية حتماً، والقوا القبض على هؤلاء الشبان واتهموهم بمساعدة المطلوبين، لكنهم انكروا.

وهدد الضابط الاسرائيلي الاهالي ليبتزّ منهم المعلومات. وطلب الضابط منهم ان يرشدوه الى اقصر الطرق واسهلها الى الجبال والوديان المحيطة بالبلدة، لكن الأهالي رفضوا. كان وضعاً غير عادي تمرّ به القرية جميعها، رجالها ونساءها، وصغارها وكبارها.. في جو شتوي صاخب.. تحت المطر والريح.. وتهديدات الضابط إن لم يتعاونوا.. وتهديدات الضابط بالانتقام من القرية إن عثر على مطلوبين في القرية نفسها او الجبال والوديان المحيطة...

كان الذكور جميعاً خارج البيوت، ما عدا الأطفال منهم تحت سن الرابعة عشرة، اما النساء فكن يتعرضن للتحرش والمضايقة القاسية من الجنود الذين كانوا يُغيرون على بيوت من يشتبهون به ويفتشونها، لكنهم لم يعثروا على شيء، ولم يلقوا تعاوناً من الأهالي.

وقبل ان يخرجوا من البلدة، هدد الضابط اهالي القرية ألا يتجولوا في المناطق المحيطة بالبلدة، وقال ان جنوده يحيطون بالبلدة من جميع الجهات، وانهم على استعداد تام لأن يقتلوا اي انسان يتواجد هناك. واعتقل الجنود عدداً كبيراً من الشبان.

ثم شك الاهالي ان الجنود ينوون أن يمشّطوا الجبال والوديان المحيطة بالبلدة تمشيطاً دقيقاً، لكن الرياح والامطار والجو اللعين او الرحيم منعهم. لذلك فقد وجد الأهالي أنّ من واجبهم ان يحذروا المطاردين لئلا تلقي السلطات القبض عليهم، ولتتقي البلدة واهاليها انتقام السلطات. وشكل الاهالي، الذين نجوا من حملة الاعتقالات التي طالت اكثر من ثلاثين شاباً ورجلاً، ثلاث فرق ليبحثوا عن المطلوبين ويحضروهم الى القرية.

اشارت النسوة ان من الأفضل ان تذهب النساء لأن الرجال ربما يتعرضون للأذى إذا ما رآهم الجنود. فوافق معظم الاهالي الذي ينحدرون من اربعة او خمسة حمائل على ما اعتقد، رغم معارضة القلة الباقية من الشبان والراشدين، ونجحت احدى الفرق وعثرت

على المطاردين واحضرتهم الى البلدة، بعد مشقة وتعب، لكن لم يخطر ببال احد من الأهالي ان البطانيات والاغراض الاخرى مثل الطعام نسيت في الكهف.

وتوقع الأهل أن يمشط الجنود الجبال المجاورة ويعثروا على الاغراض ويعتبروها أدلة على تعاون الاهالي مع "المحرضين" وحمايتهم لهم. ورغم المعارضة أمرتْ عطاف أن تذهب مع جدها ليحضرا الاغراض من الكهف.

كان الشيخ يسرد ما جرى، مرةً الينا، ومرةً الى حفيده كامل الذي تبادلنا احيانا الحديث معه، فسألنا واجبناه، وصار على علاقة جيدة مع خالد. ودخل في تلك الاثناء صبي الى الغرفة. وقال ان الشابين الآخرين في دار ابن الشيخ خضر، محمد، الذي تقع داره في نهاية البلدة، وقال الصبي بثقة الحكيم الذي يوزع النصائح والتعاليم المثالية بسخاء ان من الأفضل ان يأخذونا الى دار عمه محمد ليسهل تهريبنا إن اقتحم الجنود البلدة مرة اخرى. واشار اليه جده الشيخ خضر ان يجلس، فجلس، وهو يفحصنا بعينيه.

لم يسكن جسده او عيناه أبداً. كان يقلّد حركات خالد وقعدته على الارض. وكلما ابتسمنا من كلام الشيخ، انبسطت اساريره وابتسم ابتسامة عذبة، كأنه يقول انه واحد منا.

-« سأدلكما على البيت.» قاطع الصبي جده فجأة، فنظر اليه الرجل النحيل معاتباً، فأطرق رأسه خجلاً، واصغى لجده الذي كان يسرد كيف وصل مع حفيدته الى الكهف ووجدا الدفتر الغريب، الذي لم يذكره المطاردان الآخران.

-« الدفتر، على فكرة، قالت عطاف انه معها في بيت عمي. » قاطع الصبي جده مرة اخرى. وكاد كامل ان يعنفه، لكن الشيخ خضر نهره، « "انهم زينة الحياة الدنيا" يا كامل، دعه يقول ما يريد! » قال الشيخ مبتسماً ونظر إلى الصبي، « وكيف حال الجو يا محمود؟ »

- « زمهرير وريح وامطار غزيرة! » قال الصبي.

-« طيب. حينما يخف المطر قليلا، فستأخذهما الى دار عمك، أنتَ وكامل. » قال الشيخ خضر يطمئن الصبي. فهز الصبي رأسه بفخر.

-« انني اعرف طرق البلدة كلها.. سوف ادلكما على دار عمي!» قال لنا فخوراً بصحبتنا، ونظر الى الشيخ خضر كأنه يقول انه لن يقاطعه مرة اخرى.

-« واللهِ لولا عطاف لبقي الشابان هناك، فوق، في الجبل... المقصوفة

شعرتْ انه يوجد شبان مختبئون في جوار المغارة.. ولم تخفْ ابداً فخرجت في الليل البهيم مثل الكحل وراحت تناديهم... هه هه هه، » قال الشيخ خضر وهو يقهقه.

-« طبعاً يا جدي! انها عطاف، بكر ابيها! » قال كامل ضاحكاً وهزّ كتف عمه محمد. « لم تستحق لقب ثلثي عقل البلد، عبثاً! » فابتسم الرجل النحيل، محمد، الذي يكنى ابو خضر، وهز رأسه فخوراً بابنته.

-« حينما يركبها العناد فلا بدّ أن تنفذ عطاف ما يدور برأسها، أليست هي التي التي أجبرتنا ان نحضر الأغراض من الكهف في هذا الجو العاصف اللعين لئلا يجدها العسكر؟ »

-« هذا الجو يا أبا خضر هو الذي حجب انظار العسكر عن الكهوف ومنعهم من تمشيط المنطقة، لنقل الحمد لله الف مرة. » قال الشيخ خضر فحمدنا الله.

-« هكذا قالت امي وزوجة عمي، قالتا أن الله مع اولاد الحلال. » قال الصبي محمود ناكثاً بعهده، الأمر الذي جعلنا ننفجر ضاحكين.

-« يجب أن نقول يا الله، » قال ابو خضر، « اسمح لنا يا والدي أن نأخذ الشابين ونذهب الى داري. »

-« الله معكم وخذوا حذركم! » قال الشيخ خضر وعانقنا وهو يربت على ظهرينا. وشيّعنا حتى الحوش بابتسامته الوادعة الصافية، « اطمئنا فأنتما في ايادي أمنة. »

كان الجو بارداً، ولحسن الحظ خفّ هطول المطر. لم أرَ غرفة مضاءة في بيوت القرية المتناثرة. ووصلنا الى طرف البلدة البعيدة حيث تقع دار محمد ابي خضر . ورفض الصبي أن يذهب الى بيته مع اخيه كامل، وتوسل اليه لكي يذهب وينام في دار عمه ابي خضر. فرحب ابو خضر بمحمود ولم يعترض كامل.

وهناك في بيت ابي خضر التقيت بشخص لم يخطر ببالي ان أراه، وكان طلعت.. طلعت بلحمه وعظمه نفسه! تعانقنا وضحكنا، وهزّ رأسه لي وربتَ على كتفي. وحملق أهل البيت بنا مندهشين، ابو خضر، والصبي محمود، وشاب آخر رأيته لأول مرة، وأم خضر التي هشّت لنا وبشت، وبناتها وبينهن عطاف اللاتي وقفن عند باب الغرفة الخارجي، وهن يحضنّ الصبي ويسألنه عما جرى في بيت جدهم. وكانت الغرفة مضاءة بـ " لوكس" ذي شمعة وهاجه تبلل "بالسبيرتو"، لان الكهرباء كانت مقطوعة عن البلدة.

-« الحمد لله انكم تعرفون بعضكم بعضاً. » قالت أم خضر.

-« أيّ صدفة رحيمة جمعتكم يا ترى! » قال ابو خضر وهو يفرك يديه، « اعدّي الشاي يا يسرى.» قال لها، فتحركن جميعاً واختفين حالاً.

-« كلا، ما جمّعنا لم تكن الصدفة! » قال طلعت.

فأجبته سريعاً، « ما جمعنا كان عشقنا للأرض ولمن أحبونا، ام لا؟ »

-« الله ينصرنا على اعداءنا، ويأخذهم ويخلصنا من شرهم.. جاؤوا اليوم واعتقلوا ما يزيد عن عشرين شاباً! آه.. » قالت أم خضر، وتنهدتْ بأسى وأطلقت زفرة ألم. ولم اعلم قبلئذ أن ابنيها خضر واسماعيل اعتقلتهم السلطات قبل مجيئنا الى القرية. وبدا من حركات يديها السمراوتين، وعينيها الحمراوتين المغرورقتين بدموع الاثارة، وخديها النحيلين انها تكاد تنفجر من الرعب والحزن، الأمر الذي جعلها تخشى علينا وتحرص ان تحمينا كما تحمي ابناءها.

-« سأذهب واحضر الشاي! » قالت وشيعتنا بنظرة ود والفة دافئة.

شعرتُ بدفقات من الحب والحنو تنبعث في قلبي وتتّسع دائرتها وتكبر وتشمل أم خضر وابي خضر، والعجوز الرائع، والصبي محمود، وكامل ذي الوجه المحروق، وعطاف، كلهم، كلهم، كل الأهالي، والبلدة ذاتها، بيوتها، وجبالها المحيطة بها، وكهوفها الحانية الرؤوفة، والغيوم والمطر والريح!!

كنا في رحم الأحبة، كنا في رحم الأرض. وحرص الجميع على أن يرعانا. وبقيتُ مع طلعت ورفيقه الياس، وخالد وابي خضر. وتعارفنا وتجاذبنا اطراف الحديث. وذابت اشجاننا جميعاً وتلاحمت وانصبّت في قلب واحد، يغلفه الظلام وتتصارع فيه المتناقضات رعداً وبرقاً ومطراً وعواصف. صدق من قال ان من يسمع مصائب الآخرين تهون عليه مصائبه، لكنها كانت الاشجان ذاتها، وكان الألم ذاته، والجرح ذاته، والجسد ذاته.

واستمعنا لأبي خضر وكامل الذي أتى فيما بعد ليبشّر عمه وامرأة عمه بأنّ بعض الشبان والرجال الذين اعتقلوا عادوا وحدهم، مشياً، بعد ان أخلت السلطات سبيلهم. وطمئنهما بشأن خضر واسماعيل، فمن المحتمل أن يعودا الى البيت في غضون الساعة او اكثر.

واستمعنا الى ابي خضر حيناً والى كامل حيناً آخر، وهما يسردان لنا ما جرى عندما اغار الجنود على البلدة وكيف اقتحموا البيوت وحطّموا الأثاث والزجاج، وعبثوا في الخزائن والأسرّة بحثاً عن "مواد تحريضية". ولم استطع ان استمع اليهما فحسب، وإنّما وجدتُ نفسي

منجذباً لأعرف العلاقة الخفية والغامضة التي تربط طلعت وكامل. واتضح لي بوقت قصير أن صداقة حميمة تربطهما.

وبدا لي ان كامل وعمه ابا خضر كانا يتعمدان ان يتكلما دوماً كيلا يشعرونا بالحرج ونتكلم عن أمر لا نريد الخوض فيه امام احد. وكلما سكت احدهما، انبرى الآخر بعفوية تامة بسرد ما حدث. وكانا يقوداننا الى ان نثير بعض الاسئلة، الامر الذي كان يسرهما فيجيبان على اسئلتنا برضى وتفهم، وكان كامل حاذقا بهذا الاسلوب.

احضروا لنا الشاي، وشربناه. وخرج ابو خضر ليتوضأ ويصلي صلاة العشاء، فبقي كامل معنا، واخرج من جيب معطفه علبتي سجائر،« لم استطع ان ادبّر "امبريال" يا الياس، فأحضرت الموجود..» قال كامل لالياس، وناوله علبتي سجائر.

-« وأخيرا سأدخّن؟ أتعرفون؟ لم ادخّن منذ اسبوع.. وعقلي مخرّم على سيجارة.. هات هات... »

-« الدخّان يضرّ بصحّة ابو خضر.. انصحك ألا تدخّن يا اخ الياس.. » قال له خالد.

فنظر المسكين الياس إلى السيجارة بتحسّر وشهوة، وأخذ يشمّها باشتهاء، وهو يحكّها بأنفه ويقبّلها كأنّها حبيبته، وأعاد السيجارة الى العلبة. « أتعرفون، الدخّان مضرّ بالصحة أيضا! »

لكن ابا خضر دخل علينا فجأة وهو يرتدي دشداشة سوداء، وعلى رأسة الأصلع طاقية بيضاء. « أنتم في بيتكم! دخّنوا.. خذوا راحتكم.. هيّا، وإلا سأغضب.. أم تريد ايها الظريف أن اشعل لك سيجارة بنفسي؟ » ولم يخرج من الغرفة قبل ان يجبر الياس وخالد على التدخين. فأخذ الياس يرشف السيجارة بتلذذ وحنين جارف.

-« لم تكن صحّته هكذا قبل سنوات؟ » سأل طلعت كامل هامساً وهو يشير الى ابي خضر.

-« خمس عشر سنة يعمل في الكسارة نفسها.. استنفذت قوتّه، امتصّت دم رئتيه، هرّمتْهُ قبل الأوان.. منذ اكثر من سنتين يعاني من امراض شتى.. الربو، وضيق النفس، وتضيّق الاوعية.. وفوق هذا طردوه من العمل كما تُطرَدُ الكلاب الهرمة، ولم يعوّضوه باغورة.. وقالوا له انّه لم يكن مؤمّنا صحياً، وأنّ مرضه لا علاقة له بالعمل.. » قال كامل وتنهّد. وآنئذ نظر إليّ طلعت نظرة ذات مغزى كأنّه يذكّرني بعملنا في مطعم الياهو، وابتسم بألم.

-« ولكن اليوم، » استدرك كامل، « حدثت المعجزة! صار قويّا بكم،

أتصدّقون؟ آ، والله! أنتم بثثتم روح الصحة والعافية في جسده العليل. صار قوياً كالحصان حين علم أن ثمة مطاردين في البلدة، رغم انّه يلازم جانب الراحة غالباً، وخاصة في الشتاء.. لا تتصوّروا كم كان الجميع فرحين بالنشاط الذي بذله اليوم.. »

-« وأنت، ماذا حدث لك؟ » سأله طلعت وهو يضحك ويشير الى وجنة كامل المحروقة.

-« لا.. لا شيء! بسيطة.. »

-« ماذا لا شيء؟ ظهرت هكذا؟ أم إنّها شهوة ظهرت على كِبر؟ »

-« الكلاب حرقوني.. كنتُ في المدينة.. كان لا بد من التصعيد.. صارت مواجهة.. غاز، رصاص، حصار، استعملوا كل الوسائل.. أحبّوا أن يستعملوا شيئاً جديدا.. وكان من نصيبي وحظي أن اشرب المقلب.. ألقت طائرة هيلوكبتر أشياء صغيرة على المتظاهرين والشوارع واسطح البيوت.. وماذا ألقوا؟ حلوى! آ، والله اقول الصدق! التقطت قطعة حلوى مغلفة بغلاف جذاب، فتحتُه فانفجر في وجهي.. آه من ذلك الألم!!.. »

-« الحمد لله انها سليمة! » قال خالد.

-« المهم أن عينيك لم تُصب بأذى! » قال الياس.

وروى كامل كيف طردوه هو الآخر من مخبز اسرائيلي. وما اضحكنا ومزّق احشاءنا أنّ الخبز الذي يعجنونه في آلات كبيرة ويخبزونه في افران كهربائية، ثم "يجلتنونه" ويعبئونه في صناديق كرتونية .لا يتم اخراجه من المخبز إلا بعد أن يباركه حاخام اسرائيلي ... هه هه هه...

والشيء المؤلم والسخيف أن كامل ارتكب معصية وقام بالمحظور حينما قال لسائق احدى الشاحنات أن كومة من الصناديق تمت "مباركتها"، وقامت الدنيا ولم تقعد، لانه تبيّن أن خبز "الكوشر" بيع دون مباركة، واتُهِمَ كامل بتسميم الخبز وتدنيس قدسيته، وطُردَ من العمل. وروى طلعت كيف طرد من المطعم، وجرفتنا الذكريات.

الحقيقة أن كامل خاطب طلعت وحده. أحسستُ أن خيطاً فولاذياً غير مرئي يربطهما معاً، احسستُ انهما اصدقاء منذ أمد طويل: حديثهما الحار، اسئلتهما المتبادلة وحتى معرفة طلعت بمحمود. ولكنني لم اتطفل بفضولي. ثم تكلم كامل وطلعت وخالد معاً عن امور لم اكن اعلمها من قبل، واندهشت من حقيقة ان ثمة تعارفاً مسبقاً

كان بين طلعت وخالد.

لكنِ لم يتح لي الوقت للاستفسار. فقد أتى شخص الى دار ابي ضر بعد صلاة العشاء. وتركنا كامل، وأغلق الباب ورائه. وسمعنا شخص يقول لأبي خضر وكامل ان معظم المعتقلين اطلق سراحهم، وعادوا الى البيت، لكن ابني ابي خضر سيظلون قيد الأعتقال. البلدة اطلق سراحهم وعادوا الى بيوتهم. وكان الخبر مؤلماً ومحزناً بالنسبة للجميع. ودخل علينا ابو خضر وكامل ونحن صامتون. وبدا على ملامح أبي خضر وكامل ونظراتهما انهما تشاورا واتفقا أن يتركانا في الغرفة لنختلي لأنفسنا وننام.

-« طيب، سوف نترككم.. البيت بيتكم. تصبحون على خير! » قال لنا ابو خضر، ودخلت أم خضر والصبي وصبية هيفاء وهم يحملون الفرشات الاسفنجية والبطانيات، والقوا علينا:« تصبحون على خير! » وهم خارجون. ثم دخلتْ عطاف ووقفتْ قرب كامل، وناولتني دفتري، فأخذته وشكرتها، ووضعته فوق البطانيات، ورأيتها تخرج. والقى الياس نظرة على الدفتر، وابتسم، ثم رفع يده وهو يحيي ابا خضر وكامل،

-« تصبحون على خير! » قال لهم، وذابتْ تحيته في تحياتنا، واقترب مني. لم اكن اعرفه حق المعرفة. بدا ودوداً، وفي عينيه رأيت رزانة عجوز، وعبث طفل، وسخرية فيلسوف متشائم، ودفء انسان يحبّ العشرة والرفقة. منذ الوهلة الاولى، بدا لي ثرثاراً، لكنه لم يكن كذلك. وبعد ان تركنا ابو خضر وكامل، حدّق الياس بي وابتسم ابتسامة ماكرة، وهو يحاول أن يلتقط الدفتر عن البطانية. « ماذا يحتوي هذا الدفتر؟ أتكتب؟ » لكني التقطته قبل أن يلمسه وابعدت دفتري عنه، وقلت له،

-« إنّها أمور سرية.. سرية جدا! »

هزّ رأسه بطريقة طفولية مهدداً، « أتعرف؟ ذات يوم سأكتشف سرك.. فلا تخف! » قال لي واندسّ في فراشه بملابسه.

كان الياس يصغرني بسنتين. كان يضرم النار مع صديق له في حانوت احد العملاء، ورأهما القذر، فأشهر مسدسه واطلق النار باتجاههما. اصيب صديق الياس الحميم برصاصة في ظهره، وخرّ على الارض، ولم يستطع أن يقف او أن يهرب. أما الياس فهرب. ولم يبقَ العميل في البلدة بعد ان اكتشف الاهالي قذارته.

الياس اكثرنا صمتاً، وشديد السخرية، وله بصيرة غريبة بالامور.

والمُحَيّر أن خالد الثرثار والياس الميال للصمت كانا على علاقة قوية، رغم انهما كانا "يتناقران" كثيراً.

كان الياس اصغرنا ورغم ذلك لم يبدو على جسمه صغر سنه. كان التصحر الصلعي - وهذا مصطلح كنت استعمله لأغيظه، كلما حاول ان يسرق دفتري - يزحف من ناحية شعره الى خلف رأسه. وكان حاجباه الكثيفان الاسمران يلقيان بظلال الرزانة والوقار على محجري عينيه المتعبتين. وكان فكاه عريضين صلبين، نمت عليهما لحية غزيرة. كان جسمه قصيراً وممتلئاً. لذلك كان من السهل جداً علي ان اسيطر عليه كلما شاكسني وبذل جهده كي يسرق دفتري ليطّلع عليه. لكنه لم ينجح في سرقته وكنت دوماً احبطه.

وخلقت مشاكسة الياس الأبدية، التي بدأت نارها في بيت ابي خضر، بيني وبينه رابطة قوية. وتأكد شعوري ليلتئذ أن خالد وطلعت يعرفان احدهما الآخر من قبل. وكانا كلاهما شديدي الاختلاف وشديدي الشبه، احدهما يكثر الكلام، والآخر يكثر الغناء. وكان وفاقهما او شجارهما يضفي راحة كبيرة فيما بيننا.

انذاك اندسسنا في الفرشات لننام، لكني لم أستطع أن أنام. رغبتُ أن احادث طلعت واخبره عمّا جرى مع روني، وأن اسأله عن نفسه، واعرف ما الذي أتى به الى ذلك المكان.

وفجأة اقترب طلعت مني وهمس في أذني: « سَلِمَتْ يُمناك أيّها العاشق! قتلتَ الثور العنصري، روني، أنتَ أخذتَ بثارنا منه ابن المنيوكة! » وشعرتُ بالارتياح والبهجة، وبالخوف أيضاً، « امامنا درب طويل ومهمّات كثيرة أيها العاشق! تصبحون على خير! »

-« تصبحون على خير، » قلتُ لهم لكنني لم استطع ان انام. ثم سمعتُ طلعت يدندن لحن اغنية للشيخ امام، كنت احفظها، ولكن لم يعلق في ذهني سوى مقطع واحد منها " تجمعوا العشاق بسجن القلعة، تجمعوا العشاق بباب الخلق".. لا اعرف كيف تغيّرت الكلمات في عقلي وصارت: تجمعوا العشاق بوطن الالفة، تجمعوا العشاق برحم الارض!" واستسلمتُ للنوم وطلعت يدندن اللحن بصوته العذب.. " تجمعوا العشاق بوطن الألفة.. تجمعوا العشاق برحم الارض!!".. "تجمعوا العشاق بوطن الألفة.. تجمعوا العشاق برحم الارض!!".. "تجمعوا العشاق.... "